آفاق الحضارة الإسلامية، أكاديمية العلوم الإنسانية و الدراسات الثقافية
السنة السابعة عشرة، العدد الأوّل، ربيع و صيف ١٤٣٥ هـ .ق، صص ١٩ – ٤٩

ملامح المقاومة في شعر يحيى السماوي

رسول بلاوي*

مرضية آباد**

الملخص

الشاعر العراقي يحيى السماوي من أبرز شعراء المقاومة في الأدب العربي الحديث فقد دافع عن وطنه وناهض وناضل غير مكترث بما تعرّض له من عذابٍ ومحنٍ ونفي وغربةٍ في سبيل الوطن. بدأ مسيرته النضالية منذ زمن حكومة البعث في العراق، وقد شارك وساهم بصورةٍ ملفتةٍ في فضح السياسات الصدامية الفاشلة وحمل السلاح في الإنتفاضة الشعبية عام ١٩٩١ م، ثمّ هبّ لمجابهة الإحتلال الإمريكي فكانت قصائدة ردّة فعل عارمةً وصرخةً صاخبةً تحذّر الشعب والحكومة العراقية من خباثة خنازير البنتاغون. فهذه الدراسة التي اعتمدت في خطتها على المنهج الوصفي ـ التحليلي، تهدف إلى معالجة مفاهيم المقاومة في شعر السماوي، ومن أهمّها: الحرية والإستقلال، ورفض ظلم الحكّام وانتقاد سياساتهم، ومناهضة الإحتلال الإمريكي، والتنديد بالحرب والإرهاب، والدعوة إلى صحوة الشعب، والثورة على الطغيان والاستبداد في سبيل نيل حرية الوطن وحق الشعب في تقرير المصير في المجتمع العربي. من أروع قصائده تلك التي يرثي فيها الشهداء الذين وقفوا في وجه الظلم والاستبداد؛ وقصائده التي تناولت هذا المشهد الرهيب تتوزع بين الألم والأمل، والآهات والصمود.

---

* أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية و آدابها في جامعة خليج فارس ـ بوشهر (الكاتب المسؤول) r.balawi@yahoo.com

** أستاذة مشاركة بقسم اللغة العربية و آدابها في جامعة فردوسي مشهد Mrz_abad@yahoo.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٢/٣/٢٣، تاريخ القبول: ١٣٩٢/٤/١٧

الكلمات الرئيسة: الشعر العربي الحديث، العراق، المقاومة، الشهادة، يحيى السماوي.

١. المقدمة

منذ وُجِد الإنسان على الأرض فهو يقاوم، يقاوم الوحوش الكاسرة والعوامل الطبيعية وبني جلدته الذين يطمعون لسلب مايملكه أو لإزاحته من أرضه؛ أما مقاومة الوحوش وعوامل الطبيعة فمحدودة ولكن العداء البشري مستمر حتى يومنا هذا.

المقاومة بمثابة ردّة فعل ضد الهيمنة والاستبداد من جهة، ودفاع الكائن عن مجاله الحيوي الإنساني من جهةٍ أخرى، وهذا المجال هو البيئة والمجتمع والتشكيلات الإجتماعية. ففي الواقع حركة المقاومة هي جميع الأعمال الإحتجاجية التي يقوم بها الإنسان بمفرده أو مع مجموعة ترى نفسها تحت وطأة وضع لا ترضى عنه. فالشعوب تقاوم بأساليب مختلفةٍ من يحتل أراضيها. وتختلف هذه الأساليب من العصيان المدني إلى استخدام العنف والسلاح وما بينهما من درجات. وإذا كانت المقاومة تهدف إلى تحرير الأرض والإنسان فإنّ وسائل تحقيق هذا الهدف تتعدد ضروبها، فقد تكون المقاومة مسلحة، وقد تكون سياسيةً، أو ثقافيةً أو مدنيةً تمثل فعل الجماهير التلقائي على أنّه ردة فعل ضد العدوان والإحتلال والقهر والإذلال (بلاوي، ١٣٩١: ٢٥٦).

تتخذ المقاومة أشكالاً متعددةً، فكل فعلٍ يعبر في جوهره عن رفض الإحتلال، أو أي تصرفٍ يبدي ممانعةً لمشروعه، يعد فعلاً مقاوماً، فقتال المحتل والتعبئة النفسية ضده ومقاطعته، والعمل السياسي المنظم للمظاهرات والاعتصامات، وعدم المشاركة في مشروعات الإحتلال السياسية، ذلك كله يعد ضرباً من ضروب المقاومة. وحيثما حلّ الإحتلال فثمة مقاومة، إذ لولا الإحتلال ما عرفت المقاومة، فكل احتلال يؤدي إلى مقاومة على النحو الذي عرفته شعوب الأرض كافة، تلك الشعوب التي رفضت الهيمنة والإحتلال، وناضلت حتى حصلت على حريتها واستقلالها. ومن هنا كانت المقاومة بما فيها المقاومة المسلحة وسيلة الشعب المضطهد للدفاع عن حقه في الحياة والحصول على استقلاله ونيل حريته، وهي تمثل إرادة أبناء هذا الشعب من أجل قضاياه العادلة في الحرية والكرامة والسيادة على أرضه.

والشعر من أكثر الأجناس الأدبية قدرةً على تجلّي الفعل المقاوم فهو رسول الدفاع عن الأرض وإنسانها، وهناک شعراء حملوا راية المقاومة على الصعيد العالمي، وقد ساهموا في دحر الإحتلال والذود عن وطنهم وكرامة شعبهم. ولا شک أنّ الشعر من المظاهر العظيمة التي تستنهض همم الشعوب، ضدّ إرادة الطغاة الذين لا يعرفون إلّا الكبت والقمع. فمن الأمة من صنع بأبجديّة قصائده في واقع الحياة خطوطاً تنتهي إلى حيث الكرامة والشرف السّامي لمن أراد أن يعيش عزيزاً وطليقاً في أرض الله، ومن هذا التراث الإنساني نشأ أدب المقاومة (سعدون‌زاده، ١٣٨٨: ٥٢).

أدب المقاومة هو الأدب المعبّر عن العمل من أجل تفجير الطاقات الإيجابية الواجبة للمواجهة، إنه الأدب المعبّر عن وجهة النظر الإنسانية الشمولية وليست العنصرية الضيقة، إنه الأدب الملتزم أو الثوري أو النضالي، كما أنه الأدب الذي يسعى دائماً لتهيئة الأفراد والشعوب والرأي العام لفكرة «المقاومة». وبالتالي فإنّ أدب المقاومة يحثّ على العمل والأمل ويسعى لتحقيق أهدافه من خلال التركيز على الظروف الصعبة التي يعيشها الناس وفضح صورة المعتدي الذي يسعى لإضعاف قوتهم. إنّ أدب المقاومة له تأثيرٌ كبيرٌ في إذكاء روح المقاومة بالوعي والفهم للقضية التي تدافع عنها. فهو أدب الحثّ على العمل وزمن المقاومة ليس حالة ذهنية، يعلى القيم العليا بين الناس، وهو ليس التعبير عن صراع «الأنا» الفردية خلال سعيها لتحقيق رغباتها، بل هو أعمق من ذلك للتعبير عن «الأنا» الواعية بذاتها وذوات الآخرين من جماعتها لتحقيق أهداف مشتركة، فأدب المقاومة هو الأدب الذي يرسخ لقواعد الوجود الإنساني الحق في مقابل الحياة التي تقوم على الصراع «العدواني» بدوافع الاقتناء والجشع والهيمنة (عبد القادر، ٢٠٠٤: موقع مجلة أفق الثقافية).

في الواقع أدب المقاومة هو أدب الصرخة الشجاعة بوجه الظالم، وصيحة المظلوم بوجه الغاصب المستبد، يدعو أبناء الأمة لنبذ المذلة عن أعناق عباد الله. ومن معالم هذا الأدب الأصيل، شاعرنا الكبير يحي السماوي؛ فإنّه شاعرٌ مسلمٌ وشيعي وملتزمٌ بالمعتقدات الدينية، وقد تلقّى دروس النضال والمقاومة والشجاعة في منهج النبي الأكرم (ص) والإمام علی (ع) والإمام الحسين (ع). فقد استخدم الرموز الدينية والمذهبية بمهارةٍ وحذاقةٍ للوصول إلى

مبادئ الثورة وبثّ ثقافة الجهاد والشجاعة ومجابهة الظلم والجوع المتفشي بين الشعب. إنّ حرمان الشعب والفقر والاضطهاد من قبل السلطات والقسوة والتعذيب ومرارة الواقع كان دافعاً لنظمه الشعر السياسي ووقوفه موقفاً جريئاً بوجه السلطة والإحتلال.

هذه الدراسة التي اعتمدنا في خطتها على المنهج الوصفي ــ التحليلي، تحاول أن تناقش الأسئلة التالية: ما هي أبرز مفاهيم المقاومة التي عالجها الشاعر يحيى السماوي في منجزه الشعري؟ ما هو موقفه من الإحتلال ونتائجه في العراق؟ كيف استطاع الشاعر أن يتفاعل في منفاه مع الأحداث التي تدور في العراق؟

١.١ سابقة البحث

الدراسات التي نالت قصب السبق في تجربة السماوي نخصّ منها بالذكر كتاب «حسين سرمک حسن»، الموسوم بـ «إشكالية الحداثة في الشعر السياسي/ يحيى السماوي أنموذجاً»، وكتاب محمد جاهين بدوي الموسوم بـ «العشق والاغتراب في شعر يحيى السماوي»، وكتاب فاطمة القرني الموسوم بـ «الشعر العراقي في المنفي/ السماوي نموذجاً»، وكتابي عصام شرتح الموسومين بـ «آفاق الشعرية/ دراسةٌ في شعر يحيى السماوي» و «موحيات الخطاب الشعري/ دراسةٌ في شعر يحيى السماوي». وهذه الدراسات لم تعالج المقاومة بشكلٍ مستقلٍ.

أما الدراسات التي تناولت تجربة السماوي الشعرية في ايران، فقليلةٌ جداً منها: رسالتنا في مرحلة الدكتوراه «توظيف الموتيف في شعر يحيى السماوي» في جامعة فردوسي مشهد بإشراف مرضية آباد؛ وقد عالجنا فيها موتيف المقاومة. ورسالةٌ أخرى لنيل درجة الماجستير في جامعة إعداد المعلمين بمحافظة آذربايجان وعنوانها «مفاهيم المقاومة في شعر يحيى السماوي» باللغة الفارسية للباحثة «ليلا جباري كيلانده» وبإشراف «عبد الأحد غيبي». ورسالةٌ أخرى على مستوى الماجستير في جامعة رازي بمحافظة كرمانشاه وعنوانها «الأسلوبية في شعر يحيى السماوي» للباحث «بهنام باقري» وبإشراف «يحيى معروف». وللأسف لم تسمح لنا الفرصة كي نتصفّح هاتين الرسالتين ونطّلع على المحاور التي جاءت فيهما.

٢.١ حياة الشاعر

وُلدِ الشاعر يحيى عباس عبود السماوي بمدينة السماوة بالعراق في السادس عشر من مارس ١٩٤٩ م، امتلک ناصية الشعر في وقتٍ مبكر. تخّرج في كلية الآداب جامعة المستنصرية عام ١٩٧٤ م، ثمّ عمل بالتدريس والصحافة والإعلام، استهدف بالملاحقة والحصار من قبل البعثيين في النظام الصدامي حيث اشترک مقاتلاً في الانتفاضة الشعبية ضد نظام صدام حسين عام ١٩٩١ م، وإثر فشل الانتفاضة لجأ الشاعر إلى السعودية، وأقام هناک نحو ستّ سنوات عمل خلالها رئيساً للقسم السياسي والثقافي في إذاعة «صوت الشعب العراقي» المعارضة للنظام العراقي، والتي كانت تُبثّ من مدينة جدة، وفي هذه السنوات الستّ أعدّ عشرات البرامج السياسية، ونشر أكثر من ثلاثمائة مقال سياسي في الصحافة العربية حول جرائم النظام ومنهجه التعسفي، اضافةً إلى ما نشره من دواوين شعرية (القرني، ٢٠٠٨: ٢٩، ٣٠). ثم انتقل مهاجراً إلى استراليا؛ وبها يقيم حتى كتابة هذه السطور. أو كما يعرّف نفسه بلغته الشعرية: «أسمي الثلاثي: يحيى عباس عبود ... انتقلت من رحم أمي إلى صدرها بتاريخ ١٩٤٩/٣/١٦ م في بيت طيني من بيوت مدينة السماوة ... أحمل شهادة البكالوريوس في اللغة العربية وآدابها، وظيفتي الحالية، فلاحٌ في بستان الأماني، أو صيّادٌ غير ماهرٍ، أنصب شباكي وفخاخي في حقول الحلم، أملاً في اصطياد هُدهُد فرحٍ على غصن اليقظة في زمنٍ ذَبَحَ الحزن فيه عصافير الأحلام» (بدوي، ٢٠١٠: ١١).

٢. السماوي والمقاومة

إنّ الأدب العراقي أدبٌ حيّ يحمل في طياته آمال الأمة الناهضة المتطلعة إلى الحرية والإستقلال، الطامحة إلى العلم والرخاء بعد عصور طويلة من الجهل والفقر والتخلّف ... و لم يخلُ من التطلّع إلى الماضي وأمجاده الزاهية، و لم يهمل دفقات القلب المغرم بالحبّ والحياة ... وسائر المشاعر التي تعصف بالنفس البشرية وتثيرها أو تهدّها حيناً بعد حين (بصري، ١٩٩٩: ٢٥).

والسماوي ترعرع في هذه البيئة؛ والشاعر الذي يترعرع في بيئةٍ كهذه، لا بـــدّ أن يكون شاعراً عملاقاً. فهو ضمير الأمة ولسانها الناطق الذي نشأ وتقدّم في هذه البيئـــة السياسية والاجتماعية.

إنّ السماوي ربيب الفقر والحرمان، فهو تذوّق الحرمان وتعايش مـــع الفقـــر بكـــلّ جوارحه ولمس الواقع المرير للأمّة العربية والشعب العراقي، فأصبحت القضـــية السياســـية قضيته الأولى. فهو يكتب للأمّة العربية بكافّة أقطارها، ويدعو الناس إلى الثورة ضد الزمرة الحاكمة في البلاد وبأسلوب لاذع ينقد اضطهاد الحكومات العربيّة ضدّ أمتها، ويطالـــب بالحريّة كما اهتمّ بالقضيّة الفلسطينية وكتب لأبناء الحجارة وعبّر عن حبّه للبلاد العربيـــة. شاعرنا هذا ثمرة الغضب في وجدان كلّ عربي يصرخ وينادي للحرية، فهو لم يصمت أمام الواقع، فكان يعبّر عنه بأرقّ وأعذب الكلمات، فقصائده مرآة لواقعٍ أليمٍ ومعاناة شعبه.

إنّ ايمانه العميق بالقضية العربية قد أغنى حسه وأرهف مشاعره وجعله يـــربط التجربـــة الشخصية بالتجربة الشعرية مؤكداً بتواضع شديدِ البراءةِ أنّ القصيدة العربية عنـــده وعنـــد زملائه من الشعراء الكبار أصحاب القضية ليست سوى نوع من تجسيد الفعل أو استدعائه.

إنّ شاعر القضية ـ لاسيما القضية الساخنة ـــ لا تستهويه اللعبة اللغوية، لأنها تفقد المفردة حراراتها وطاقتها الموحية؛ يقول الناقد.عبد العزيز المقالح: «إنّ الكلمة سلاح يدافع به الشاعر عن نفسه وعن همومه وعن وجوده المهدّد وحينما تكون الأمة سلاحاً مباشراً فإنّ نجاحها يتحدد في قدرتها على التسديد ومواجهة الخصم، وهذا يحميها من إهدار قيمتها النضالية ـــ في كثير من الأحيان ـ إلى الرصد الخارجي وتجاوز ما هو أعمق في التجربـــة كاســـتبطان التجربة والتقاط الرعشات المحملة بالشعر» (المقالح، ١٩٩٢: ٣٨).

١.٢ مجابهة صدام

تحفل كتابات السماوي بقيم الإنسان النبيلة التي تتضمن الشعور بضرورة العدالة وأن يتبوأ كلّ مخلوقٍ المكانة التي يستحقها دون ظلمٍ أو محاباةٍ، وأن تنتصر الأخوّة بين بني البشـــر؛ والمتابع لإبداع السماوي يجده زاخراً بقيم الجمال، والمحبة والنضال من أجل الغد الأجمل.

وقد عرف الشاعر بنضاله ضد الظلم وتصديه للنظام الجائر، مما جعله يساهم مساهمةً فعالـــةً في الثورة الجماهيرية الكبيرة ضدّ الطغيان، ويتحمل المطاردة والغربة وحياة المنـــافي القاســـية. فقبل احتلال العراق كانت اهتمامات الشاعر تصبّ في مجالٍ واحدٍ وهو فضح السياســـات التعسفية والقمعية التي يقوم بها نظام البعث البائد، وما يمارسه من ظلم واستبداد تجاه شـــعبه، والعدوان على الدول المجاورة بما فيها الكويت وإيران بوصفها صورة من صـــور الضـــلال السياسي وتفسخ قيم الأخوّة والعروبة وأواصر الرحم وحقوق الجوار لدى ساسة العراق.

السماوي كتب قصيدته النارية بعنوان «الحاخام يخطب في بغداد» عام ١٩٩٤ بعـــد أن ألقى صدام حسين خطاباً يقول فيه: «وإنني ما زلت أمتلك الشجاعة الكامنة لتكرار التجربة ... فهنيئاً للعراقيين وللأمة بالانتصارات العظيمة وبالمجد الذي حققناه»، وذلك بعد تـــدمير قوة العراق العسكرية على أيدي قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة في حرب الخلـــيج الثانية (القرني، ٢٠٠٨: ١١٥)، يقول السماوي:

> خطب ''ابن صبحة'' يا أنام/ سمعا إذا خطب الهمام/ ''قعقاع'' هذا العصر لو../ أقعى: تراجفت العظام/ وإمام ـــ حزب البعث ـــ.../ تقطر من عمامته المدام/ فسَلِ النصارى واليهود .../ أمثله عرف اللئام! (السماوي، ١٤١٤: صحيفة الندوة).

وفي مكان آخر يقول:

> يتفاخرون بعار سطوتهم/ وأنا بوشم القيد أفتخر!/ عجبا على الجلاد: قد هزمت/ كفّاه، والمقتول منتصر! (السماوي، ١٩٩٢: ٢٣).

ونراه يذكر طاغوت العراق صدّام بقوله المتّسم بالفكاهة والهجاء في قصـــيدته بعنـــوان «قالت وجرحكَ جرحي» فادّعى أنّ لصدام ألف أبٍ ثم أخبرنا منذ زمان بسقوط الطاغية:

صدام يـــا وَسَـــخَ الـــدنيا بِرمَّتِهـــا ... يا بئسَ مَنْ حُكِموا يوماً، ومن حَكَموا
بِحَجْمِ مَجْدِكَ نَعلى يا ابْن ألـــفِ أَبٍ ... نَذْلٍ لواحدةٍ، حيـــث الرضـــاعُ دَمُ!!
تِهْ يـــا خَبيـــثُ فللأيـــامِ دَوْرَتُهـــا ... وسوف يُنْتَعَلُ الطـــاغوتُ والصَّـــنَمُ!

(المصدر نفسه: ١٥٢)

بهذه الهجائية المقذعة يجري الشاعر مجرى قصائد النقائض المعروفة التي كان «نفي العفة» عن نساء الخصم وأمهاتهم أوجع ما يُستهدف به وينال منه، وقد كان السماوي كذلك ابتداءً، إذ يُقابل بين هذه الصورة، وبين أناهُ العفيفة ذاتاً وجذوراً في مكانٍ آخر:

انا ابن الخاشعَين أباً وأمّاً ومن ضوء الفضيلةِ صولجاني
فما عانقتُ ــ لا والله ــ خوداً لعوباً أو وقفتُ بباب حانِ
وما قايضتُ ــ لا والله ــ جاهاً بقيدٍ، والمكانةَ بالمكانِ

(السماوي، ١٩٩٧: ٨٤)

فهو ابن العفة والتقى في مقابل صدام نتاج العهر والخنا؛ نتاج «صبحة» التي لم يعد الشاعر يدعوه إلا بإبنها ترفعاً عن ذكر اسمه مباشرة، وإمعاناً في التحقير والإزدراء:

تركتُ دجلةَ يعوي في خرائبها كلبٌ، وتمرغُ ذئبانٌ بلا عددِ
فما جلستُ إلى شطآنها غرِداً إلّا ويسبقني نحو العذابِ غَدي
تَمَخّضَ الرّجسُ يوماً في مرابِها فليت «صبحةَ» لم تَخصَب ولم تَلِدِ!

(السماوي، ١٩٩٢: ١٨)

إذن تبرز «المرأة/ صبحة» هنا وسيلةً للهجاء، أداةً لقهرالخصم معنوياً، وتجريداً لكيانه من كل مفخرةٍ جديدةٍ يزهو بها، فلا شَرَفَ لمن كان في «أصله» وضيعاً، مهما ائتلق وامتدّ سؤدده، هو مجدٌ مؤقتٌ، وزعامةٌ لن تدوم:

مُتفائلٌ أنّ الرصافةَ/ سوف تُرسي للمَها/ جسراً من الصلواتِ/ والعشّاقَ ذات غدٍ سيصطبحون بالبشري/ ويغتبقون من كأس الأمانِ/ ويُطلقونَ سراحَ أشواقٍ مُكبّلةٍ/ ويشفي ليلُ دجلةَ/ من ''فدائيي ابن صبحة''/ والفرات من الجذام/ والقادةِ الغلمانِ/ حُراسِ ابن صبحة والدُّمي الوزراء/ والمُستأجرينَ/ الماسحين بـ ''لحية النُّسكِ المؤقّتِ''/ باب هولاكوالجديد/ وبائعي عَلَف ''ابن صبحة''/ في حوانيت الكلام/ فإلى الأمام إلى الأمامِ جياعَ دجلة والفراتِ إلى الأمام/ زَحفاً على كهف ''ابن صبحة''/ بـ ''القنادر'' والحجارة/ بالبنادقِ والحسام (السماوي، ٢٠٠٣ أ: ١٨٤-١٨٢).

هذا التفاؤل المحتدم، والحماسة الطامحة التي تستشرف قادماً أزهى وأجمل، مستقبلاً نقياً من نجاسات «ابن صبحة»، ظُلمه وأزلامه، مريديه وعملائه، يصدر عن الشاعر قبيل سقوط

نظام البعث بفترة وجيزة، لكن وجه الإحتلال الأمريكي الكالح يربك الصورة، ويؤجل فرحة المعاد إلى الوطن الحق حتى حين لا يعلم إلّا الرحمن مداه:

قالت: أمسرورٌ؟ فقلتُ لها: أجل ... لكنّ بي ممّا يُعَدُّ لنا وَجَل
سَقَط «ابن صبحة» في العراق وحزبُهُ ... وأتت فؤوسُ القانتينَ على «هُبَل»
ومضي السرورَ غداةَ أعلنَ مُنقذي ... أنّ الرحيلَ عن العراقِ إلى أجلْ
«لا يسلم الشرفَ الرفيعَ من الأذى» ... حتى يُغادرنا الغُزاةُ على عَجَل

(السماوي، ٢٠٠٣ ب: ١٦)

استلهم الشاعر في هذه النصوص المرأة هدفاً للهجاء أو جسراً له، ممثّلةً في «صبحة» التي كان أعظم أوزارها كونها رحم تَخَلُّقِ باعث الحرب وشيطانها الرجيم في معتَقَد الشاعر (القرني، ٢٠٠٨: ١١٨-١١٥).

٢.٢ مجابهة الإحتلال

١.٢.٢ موقف الشاعر

إنّ محنة الشعب العراقي هي محنة الشاعر يحيى السماوي وهي من أكبر الأحداث التي هزّت الضمير الإنساني، فلا غرابة أن ينذر الشاعر قلمه لتصوير وقعها في نفسه. فقد غادر السماوي وطنه العراق هرباً من الظلم والإستبداد الديكتاتوري على أمل العودة إليه في ظلّ نظام يغدو فيه العراق وطناً للجميع يخلو من القهر والاضطهاد، لكن أمله خاب حين بدت له مأساة الإحتلال لا تقلّ فداحةً عن الحكم الاستبدادي، فآثر البقاء في منفاه الاختياري يمزقه الألم، وقد تخلى العالم كله عن وطن وشعب كان عبر تأريخه منهلاً للحضارة ومنبعاً للعطاء الإنساني.

فطغت نزعة الحزن المرير والشعور بالألم والحسرة على شعر يحيى السماوي واستمرت هذه النزعة في دواوينه الأخيرة لكنه بدا أكثر تماسكاً في مواجهة الواقع المؤسي، جاهداً في تأدية رسالته الشعرية محرِّضاً ومنددا وباحثاً عن أمل يفضي إلى غد يخلو من احتلال غاشم وإرهاب وفاقة، فجاءت قصائده حافلةً بتصوير مشاعره، ودعوة الشعب لينهض من عثرته، فيطرد المحتل ويحرر وطنه من تجّار السياسة وسماسرتها ووضع النهاية للحوانيت الطائفية والمذهبية.

لا يُطلَب من الشاعر أن يكون عالِـــم اجتماعٍ أو اقتصادٍ أو رجل سياسةٍ، لكنّ المطلوب منه أن يجسّم جوهر المأساة بحدسه، ويوجّه رسالته بلونٍ من الوعي وعي مســـببات المأســـاة ليفضحها ويندّد بها، بقالبٍ جمالي مؤثرٍ، وهذا ما نلمسه في شعر الســـماوي مـــن خـــلال تصويره أثر المحن في نفسه، وتصوير واقع وطنه سواء في ظل النظام الـــديكتاتوري أو تحـــت رحى الإحتلال إنّه مقاتل سلاحه الشعر، يذود عن وطنه المجزّأ:

كان يا ما كانَ/ في الزمن الذي لم يأت بعدُ/ وطنٌ تخاذل فيه جندُ/ فإذا الرغيـــف الذلُّ/ والماعونُ جرحٌ/ والهوى سوطٌ وقيدُ/ فلتدّخِـــرْ آهاتك/ الشـــطآنُ ســـوف تضيقُ/ والأنهارُ تعطشُ/ تستحي من ظلها الأشجارُ/ سوف يجفُّ ضـــرعُ الأرضِ/ والتنورُ يغدو إرثاً فراتيّـــا .../ إذن؟ أينَ المفرُّ من القصيدة/ والقصيدةُ تهمـــةٌ إنْ لم تـــُهادن/ سارقي قوت الجياع/ و لم تـــُمَسِّـــدْ لحيةَ الســـيّافِ/ فادخل كوخ جرحِكَ واغلق الأبوابَ/ فالناطورُ وغـــدُ/ كذبتْ غـــيومُ الفاتحين/ وكاذبُ بـــرقٌ ورعـــــدُ (السماوي، ٢٠٠٨ أ: ١٢٨ – ١٣٠).

كان السماوي صاحب حلم نبيل، وكان أدعياء الوطنية أصحاب مشاريع استثمارية في سوق السياسة، فليس غريباً أن بدأ الشاعر السماوي في شعره، محبطاً يائساً ضائع الخطى، ولا يملك غير هذه الصفحات وقلمه الذي يجسد حلمه ببراءة البدوي، فالسماوي، في كلّ دواوينه السابقة، كان يعتقد أنّ نظام صدام حسين هو أسوأ الأنظمة، قبـــل اكتشـــافه أنّ الإحتلال هو الأسوأ فقد فوجئ السماوي أنّ الغزاة لم يكونوا أرحم من الحاكم المســـتبد وما كان الذي وقع لوطنه في حسبان شاعرٍ لم يقرأ أبجدية السياسة ولا عرف خبثها.

في بدايات هروبه من العراق، كان حلم العودة يراود الشاعر السماوي الذي عقد آماله على ثورةٍ شعبيةٍ أو عسكريةٍ تضع حدّاً للديكتاتورية الفردية والحزبية وتفســـح في المجـــال لقيام سلطة الشعب لكن كوثر هذا الأمل تبخـــّرَ بجمر الإحتلال، فأســـلم الشـــاعرَ إلى التشاؤم، بل إلى مرحلة هي بين التشاؤم والتفاؤل، كان الروائي الفلسطيني «أميل حبـــيبي» قد ســـمّاها «المتشائل» فحيناً يشدّه إيمانٌ بقوة الشعر في تفجير الغضب الشعبي، وحينـــاً يسلمه يأسه إلى الإحباط فبدا الشاعر وكأنّه فاقدٌ لتوازنه (الأرناؤوط، ٢٠١٠: ٢٧٠):

لا تسأليني مَنْ أنا/ فإنني أجهلُ مَنْ أكونْ/ كلّ الذي أعرفهُ عني/ أنا مدينةُ الحكمةِ/ لكنّ الذي يدخلها/ لابدَّ أن يُصابَ بالجنونْ (السماوي، ٢٠٠٨ ب: ٥٠).

وفي بحثه عن الوطن المفقود، يؤمن السماوي بالشعر ثم يكفر بالقصيدة والكلمات يتأرجح بين اندفاعه إلى القبض بمشاعره على شعاع الحلم الهارب، ثم يرتدّ محبطاً معترفاً بعجزه شاعراً وعجز اللغة أداةَ بيان ... فيريد ولايريد يريد العودة إلى حبيبته «هند» لكنّها مشدودة إلى سرير المحتل بحبلٍ من سرفات الدبابات ... (المصدر نفسه: ٢٧١):

فتَّشتُ في قاموس ذاكرتي/ نخلتُ الأبجديةَ غُصْتُ في كتب البلاغة والبيان / بحثتُ في دُرَر الكلامِ/ فما رجعتُ بغير يأسي من طريفي والتليدْ/ ماذا أسمّي هند؟/ هندٌ ضَحكةٌ عذراءُ ما مـرّتْ على شـفةٍ/ وقافيةٌ مُبَلّلةٌ بدمع الوجدِ/ أغنيةٌ تُرَتِّلها الحَمامـة/ وردةٌ كانـت بمفردها الحديقةَ/ صولجانُ العشق في الزمن الجديدْ! (السماوي، ٢٠٠٨ ب: ٦٣).

٢.٢.٢ صورة المحتل

السماوي نذر حياته في الدفاع والذود عن الشعب العراقي، فهو كان يتابع من منفاه ما يجري في بلده العراق، ويشهر سيف الشعر في وجه المحتل في قصيدة «نقوش على جذع نخلة» شبَّه الشاعرُ المحتلين بالجراد المنتشر فشجّع العراقيين على الإتحاد ووحدة الصفوف لطرد الغاصبين من الوطن، فيقول:

كلُّ الجَرادِ البشريِّ الآنَ في بغدادْ/ فَيا جياعَ الرافدينِ اتَّحدوا/ وَنَظِّفوا الحقلَ من الجَرادْ/ كي لا يجوعَ في الغدِ الأبناءُ والأَحْفادْ/ فإنَّ تأمينَ رغيفِ الخبزِ/ فَرْعٌ من فروعِ شِرْعَةِ الجهادْ (السماوي، ٢٠٠٥: ١٠٧).

ونراه يعترض على الأمريكيين لأنّهم يقتلون الأبرياء فيعتذرون أمام الشعب العراقي المظلوم. يقول الشاعر في قصيدته «القتلى لايحييهم الاعتذار»:

فيمَ اعتذارُك ؟ ما أبقيْتِ لِيْ مُتَعا ... تغْوي العيونَ بنجمٍ ضاحكٍ سَطعا
هي المسرّةُ عادتْ وانتهى زَعَل ... وأشمستْ ظلمةٌ والودُّ قد رجعا
فهلْ يعيدُ لمذبوحٍ صدى أسَفٍ ... نبضاً ويُعْشِبُ صخراً مائجٌ خدعا؟

(السماوي، ٢٠٠٦: ٢٣٥)

ويقول الشاعر عن جرائم الإحتلال وحصادهم للأبرياء من المواطنين:

طفلٌ بلا ساقين/ وطفلةٌ مشطورةٌ نصفين/ وطاعنٌ دون يدٍ/ وامرأةٌ مقطوعةُ النهـــدين/ وكوّةٌ في قُبّةِ "الحسين" جميعها:/ حصادُ طلقتين من دبابةٍ/ مرّت بـــ "كربلاء"/ تحيةً ليوم "عاشوراء" (السماوي، ٢٠٠٥: ١٢٥).

يعمد الشاعر إلى تكثيف الرؤية الشعرية عبر مونتاجٍ تصويري؛ ينقـــل لنـــا المشـــهد الإجراميّ في العراق في ظلّ الإحتلال الأمريكي بعدسةٍ مونتاجيةٍ؛ ترصد الواقع المرير الذي يحدث في بلده العراق، وكأنّ مشهد الفتاة المشوه والطفل المقطوع اليدين يعكـــس رؤيـــةً بصريةً واضحةً متمثلةً بوضوحٍ أمام القارئ؛ وكأنها تحدث أمام عدسة الكاميرا أو أمام عين المتلقي ليتملاها ببصره؛ ويتأمل هول المأساة التي يعيشها أبناء الشعب العراقي في ظلّ واقعٍ دامٍ يؤذن بالكثير من المآسي والمجازر والمشاهد المرعبة (شرتح، ٢٠١١: ١٢٨، ١٢٩).

وفيما يلي يقول الشاعر:

لَسْنا "هنوداً حُمرا"/ فلماذا يُريدون إبادَتَنا؟/ يَحتُّونَ بُستاناً كامِلاً/ كلما نَبَتَـــتْ عُشـــبَةُ فرح/ يهْدمون حَيّاً كامِـــلاً/ كلما بَنَيْنا بيتاً طينياً/ أخذوا من بَقَرَة الوطن اللحمَ والحليب/ وأعطَونا الرَّوثَ والحوافِر/ أما من فِئران تجارب/ لاختبار آخر مُبتَكرات البنتـــاغون/ غـــير الشعوب؟ (السماوي، ٢٠٠٨ ب: ١٠١).

فكأن الشاعر في هذا المقطع يريد أن ينفي عن هذه الأمم الرحمـــة والشـــفقة والحـــس الإنساني، لأنّهم يبيدون الشعوب ويحرقون أحلامهم ويقتلون أمـــانيهم بـــالظلم والتســـلط والقسوة والإحتلال؛ وهذه الشعوب من حقها الحياة بحريةٍ وكرامةٍ وأمانٍ؛ فلماذا لا يخترعون فئران تجارب تحلّ محل إبادة الإنسان، لكي ينفسوا عن نوازعهم اللاإنسانية الـــتي تضـــج في نفوسهم الشريرة، لا أن يجربوها على البشر الأبرياء؛ إنّ هذا الترسيم الشـــعوري في رســـم الرؤية الإنسانية وبلورتها يدلّ على روح إنسانية شفافة تسعى إلى بـــثّ الـــرؤى والمشـــاعر العاطفية بمصداقيةٍ وإدراكٍ معرفي وجودي إنساني شاملٍ (المصدر نفسه: ٣١٩).

يخاطب الشاعر المحتلين بشكل غيرمباشر ويؤكد على أنّ وطنه لاينثر للغزاة ورودا بـــل يرفع رأسه شامخاً باسقاً كأشجار النخيل يأبى الانحناء لإرادة المحتل الغاشم:

حاشـــاكَ تنشـــرُ للغـــزاةِ وُرُودا فَلَقَدْ خُلِقْتَ كما النخيـــلِ عنيـــدا
لا زال فيكَ من (الحســـينِ) بَقيَّـــةٌ تأْبى الخنوعَ وإنْ تُبـــاحَ وريـــدا

(السماوي، ٢٠٠٥: ١١٣)

وفي قصيدة «لوكنتُ» يبدأ بداية غنائية يتعهد فيها الشاعر بأنّه لو كان ربيعـــاً فإنـــه سوف ينشر الخير والخضرة والنماء في كل صحاري العالم، وهي تمنيات تـــوحي بالفعـــل الإنبعاثي في لاشعورنا كالدفاع في وجه المشكل:

لوكنت ربيعاً/ لما تركت صحراء/ إلا وأقمت فيها/ مهرجان خضـــرتي (الســـماوي، ٢٠١٠ ج: ١٢٧).

ولأنّ فعل الشاعر الشعري يقوم على ملاحقة الضد بالضد، فإنّه يلحق بالصورة الربيعية السابقة صورةً يتمنى فيها أن يكون القرين «السلبي» للربيع وهو الخريف في واحدةٍ مـــن أروع التمنيات مدلولها عن التضحية بالنفس من أجل الإنسانية كلها:

لو كنت خريفا/ لانتحرت/ كي لا تحني الوردة رأسها/ حُزنا على الفراشات (المصدر نفسه: ١٢٧).

وفي حركةٍ ثالثةٍ يتمنى أن يكون المطر كي يحيي الأرض بـــ «دموعه»:

لو كنت مطرا/ لواصلت بكائي/ كي تضحك السنابل (المصدر نفسه).

وهكذا يستدرجنا في دروب التماهي مع مكونات الطبيعة وتحولاتها ليغيّب انتباهتنا، ويسير بنا في طريق «طبيعيةٍ» محايدةٍ لاصلة لها بالسياسة. وبعد أن يؤسطر ـــ ضمن التمني طبعـــاً ـــ طاقاته الخارقة مستعيرًا أفعال الطبيعة الكونية من ربيعٍ وخريفٍ ومطرٍ فإنّه ينـــهي القصـــيدة بأمنيةٍ صادمةٍ يجعلها متّسقةً مع الشكل «الطبيعي» للأمنيات السابقة وذلك من خلال اجتياح البيت الأبيض كطاعون مجتثاً إياه بأداةٍ زراعيةٍ هي المنجل (سرمک، ٢٠١٠: ٢٢٨):

لو كنت طاعونا/ لاتخذت البيت الأبيض/ حقلا لمنجلي (المصدر نفسه: ١٢٨).

وحين ينتصر عليه الواقع بدمويته ويعجزُ في صحوه عن تغييره، يلجـــأ الســـماوي إلى احلام اليقظة مستنجداً بأخيلتها للانتصار على أولئك الذين شوّهوا واقع الوطن وأشـــاعوا الرعب في أرجائه وأقاموا إمبراطورياتهم المالية على حساب شعبٍ جائعٍ:

لو تُحْسِنُ الوسادةُ الكلامْ/ لأخبرتكِ عن بطولاتي التي أنجزها/ من قبل أنْ أنـــامْ/ منـــذ دهورٍ وأنا أقود خيلي/ شاهراً سيفي بوجه: القادةِ الزور/ الطواغيتِ اللصوص/ موقدي الفتنةِ في بستاننا/ وهادري أغنيةِ العاشـــقِ/ في حديقة الغرامْ/ هزمـــتُ ''هولاكـــو''/ ودَحْرجتُ رؤوسَ سارقي/ قوتِ جياعِ الوطنِ المحكوم بالإعدامْ/ حطّمتُ ما في ''المعبد الأبيض'' من أصنامْ/ أعدتُ لـــ ''المنطقة الخضراء'' عِفَّةَ الفراتين/ أقَمْتُ مهرجانَ القمحِ والخـــزامْ (السماوي، ٢٠٠٨ أ: ٢٠١ – ٢٠٣).

والسماوي الإنسان يتميز بأنّه لم يساوم سلطةً أو حكومةً على مصالح الشعب و لم يمدح طاغيةً أو مسؤولاً أذلّ الشعب وكلّ همومه تنحصر بهموم شعبه يقدمها بقصائد فخمةٍ جزلةٍ راقيةِ الشكل والمضمون يضمنها قيم الحب والأمل بغد أجمل ورغـــم انحيـــازه إلى الفكـــر اليساري وتبنيه إلّا أنّه لايفرض رؤيته فرضاً بل نتلمس توجهاته بشفافيةٍ مقبولةٍ ورؤيةٍ عميقةٍ أهّلته أن يكون محطّ إحترام كلّ المثقفين على اختلاف مشاربهم الفكرية.

٣.٢ الحرب ونتائجها

تُعَد التجربة الحربية من أهمّ محاور أدب المقاومة؛ ولايخفي أنّ الصراع الذي قد ينتهي إلـــى الحرب قديمٌ في تاريخ الإنسان ويكاد يناهز عمر الإنسان على الأرض فمنذ معركة قابيـــل وهابيل والصراع قائمٌ ولايبدو زواله.

والصراع ينشأ أو يحدث نتيجة للتنافس بين طرفين على الأقل. وهنا قد يكـــون هـــذا الطرف متمثلاً فى فردٍ، أو أسرةٍ، أو ذريةٍ أو نسلٍ بشرى معينٍ، أو مجتمعٍ كاملٍ. إضافةً إلى ذلك، قد يكون طرف الصراع طبقةً اجتماعيةً، أو أفكاراً، أو منظمةً سياسيةً، أو قبيلةً، أو ديناً. وهنا فإنّ الصراع يرتبط بالرغبات أو الأهداف غير المتوافقة.

وقاموس الكتاب العالمي، يعرف الصراع بأنه «معركةٌ أو قتالٌ Fight، أو بأنّه نضـــالٌ أوكفاحٌ Struggle، خاصة إذا كان الصراع طويلاً أو ممتداً» (بدوي، ١٩٩٧: ٣٧). وإذا امتدّ الصراع بين دولتين قد ينتهي إلى الحرب.

والحرب كما تعرفها الموسوعة الحرة (ويكيبيديا) هي نزاعٌ مسلحٌ تبادلي بين دولتين أو

أكثر من الكيانات غير المنسجمة، حيث الهدف منها هو إعادة تنظيم الجغرافية السياسية للحصول على نتائج مرجوةٍ ومصممةٍ بشكلٍ ذاتي.

والحرب هي عبارة عن تفاعل بين اثنين أو أكثر من القوى المتعارضة والتي لديها صراع في الرغبات حول السيادة والأراضي والمصادر الطبيعية أو الدين أو الأيدلوجيات.

وقد مرّ العراق في تاريخه بعدّة حروب، خاصةً تلك وهذه التي اعتاش على مبرراتها الخادعة حزب البعث منذ انبعاث خَبَثِهِ وحتى الآن، العراق وإيران، العراق والكويت، العراق وأمريكا، وفي كلٍّ كانت العراق والعالم!!

وغني عن الذكر أنّ الأطفال والنساء أشد الفئات بؤساً ممن يدفعون ثمن رعونات حمقى الساسة موقدي نيران الحروب، ولقد رَصَدَت قصائد السماوي انعكاسات الحرب البشعة على الوطن رصداً موجعاً لا كمُشاهِدٍ فحسب، بل كمكابدٍ لتلك الأزمة. كان تَرَحُّلُهُ في المنافي من آلَم ما لحقه من جرائر الحرب، فرصدها قصائده في وقار الأمومة المنكسِر، وفي عجز الطفولة البريئة، وفي اغتيال أحلام الصبية المفعمة بالحياة حُبّاً وحبوراً، أو التي حقها أن تكون كذلك:

يا أيّها الوطن المُخـرّزُ بالأسـي ... شرّقتُ عنـك فغـرّبَ الـتفكيرُ
خُذني ــ ولو طيفاً ــ إليك وللتي ... ما بين عَينيهـا ووجهـيَ سُـورُ
للنائمينَ على الطّـوي لمّـا كَبَـا ... صُـبحٌ فغـادرَ خُبـزَهُ التّنـورُ
لطفولةٍ شُدَّت لصـحن شـحاذةٍ ... وكهولـةٍ فيهـا الإبـاءُ كسـيرُ

(السماوي، ١٩٩٧: ١٨٠)

هذا المقطع بل القصيدة بأكملها تصف مخلفات الحرب من المشاهدات اليومية المؤلمة/ المألوفة في العراق خلال سنوات الحصار الاقتصادي بعد تحرير الكويت (القرني، ٢٠٠٨: ١١٨، ١١٩).

وهل تُنبت الحرب إلّا الوهم، وهل تتمخّض إلّا عن المآسي والعلل والارزاء وحتى التشوّهات الخلقية في الولادات الجديدة؟!:

لي ما يُبرّرُ وحشتي هذا الصباحَ/ فإنّ "نملة" جاءها طفلٌ له رأسانِ/ "نملـةُ" كانـتِ القنديلَ في ليلِ الطفولةِ/ ضاحَكتني مرةً فكبرتُ/ أذكر أنّني ــ في ذات وجدٍ ــ/ قـد

كتبت قصيدةً عنها/ وحين قرأتُها في الصفِّ/ صفَّقَ لي المعلّمُ/ غير أنّ بقيّـةَ الطـلابِ/ أضحَكَهُم هُيامي (السماوي، ٢٠٠٣ أ: ١٠٦).

تزايدُ حالات الإجهاض غير المعلل، أو المواليد القاصرين صحياً والمشوهين، وانتشـار أمراض الحساسية المختلفة، وارتفاع معدلات الإصابة بالسرطان، كل هذا وغيره جانـبٌ واحدٌ من الكوارث البيئية والصحية التي أدّت إليها حرب تحرير الكويت بما استخدم فيهـا من مبتكرات مصانع آلة الحرب الغربية في العراق بل وفي جميع الدول المحيطة بها، ويـأتي مشهد «الطفل ذي الرأسين» ليذكّر بها، هذه هي بشاعة المآل الذي قد تحظي به حالةٌ ما بتكوين أسرةٍ/ وطنٍ، أو هو:

طفلٌ بلا ساقين/ وطفلةٌ مشطورةٌ نصفين/ وطاعنٌ دون يدٍ/ وامراةٌ مقطوعـةُ النهـدين (السماوي، ٢٠٠٥: ١٢٥).

ينشغل الشاعر بالهمّ الجمعي الوطني منطلقاً إليه من اهتماماته الذاتيه المحاطة بالخيبـات والتهديدات، هذه التهديدات التي باتت تعصف بكـل شـيء، بالعشـاق والعصـافير والأشجار. وأوّل هذه التهديدات وأعظمها هولاً هي الحرب بطبيعتها التدميرية البشـعة، ولهذا فإنّ الشاعر يرفضها رفضاً باتاً فهي مثل المُثكِل الذي سـيجتث بمنشـطه الباشـط والدموي كل بهجةٍ في حياتنا (سرمک، ٢٠١٠: ٧٨):

إرتباك عاشقين/ أفزعهما انفجار قنبلة/ أو صفّارة إنذار/ سقوط عصـفور بشـظية/ أو جَرْح سعفة نخلة:/ أسباب وجيهة/ لرفضي الحروب ... (السماوي، ٢٠٠٨ ب: ٥٢).

هو يرفض الحروب، مهما كان نوع هذه الحروب وتحت أي غطاء تبريري. هذا ما نفهمه من الأسباب التي يقدمها. لكن ما هو السبيل لدرء العنف عن هذه الموجـودات الهشّة: العشاق والعصافير وسعفات النخيل؟ للأسف ـ ويبدو أنّ هذا قدر النفس البشرية السرمدي الذي تفرضه تركيبتها التي تتصارع فيها غرائز الموت والحياة ـ لايجد الشـاعر وسيلة لدفع أذى غولة الحرب غير الحرب ذاتها، فيستدرك سريعاً (المصدر نفسه: ٧٩):

أسباب وجيهة لرفضي الحروب/ ما لم تكن / دفاعا عن وطن/ وكنسا لوحل احـتلال

(المصدر نفسه: ٥٢)

وفي قصيدته «أنا مثلك يا أنطوان» التي أهداها إلى صديقه الشاعر أنطوان القزي، يصرح الشاعر بأنّه مثل صديقه يدين كل الحروب مهما كانت أنواعها ومبرراتها، ولكنه يؤيدها إذا كانت حرب:

النور على العتمة/ الصعاليك على الأباطرة/ البطون الخاوية على المتخمين/ الربيع على الخريف/ المطر على الجفاف/ والمحبة على الضغينة (السماوي، ٢٠١٠ ب: ٨٨).

٤.٢ الإرهاب

يختلف العلماء والمفكرون في جميع أنحاء العالم، على اختلاف أديانهم ومعتقداتهم، اختلافاً كثيراً في تحديد معنى كلمة «الإرهاب» وضبطها، كما تتعدّد الآراء وتختلف في تحديد معنى «الإرهابي»؟، فمن يُعَدُّ في رأي بعضهم إرهابياً أو مجرماً أو قاتلاً يستحق العقاب، يُعَدُّه البعض الآخر مجاهداً أو مناضلاً من أجل الإستقلال والحرية!

الإرهاب كلمة في اللغة العربية اشتقت من الرهبة والتخويف، وقد اختلف في المعنى السياسي لكلمة «إرهاب»؛ عرفه البعض بأنّه أي عمل عدواني يستخدم العنف والقوة ضد المدنيين؛ ويهدف إلى إضعاف معنويات العدو عن طريق إرهاب المدنيين بشتّى الوسائل العنيفة، ويُعرف كل من يقوم بذلك بالإرهابي. والإرهاب يستهدف الطائرات المدنية وما تتعرض له من اختطاف، والمدن المكتظّة بالسكان وما ينالها من تفجيرات واغتيالات. وعلى هذا فقد تكون الضحية من بين المدنيين الأبرياء. والمعبّر عنه اليوم بالإرهاب وهو استهداف المدنيين عملٌ مرفوضٌ وفقهاء الإسلام أجمعوا على تحريمه (بلاوي، ١٣٩١: ٢٧٨، ٢٨٨).

أمّا في الإسلام يعتبر «الإرهاب» نوع من إعداد القوة والسلاح لإثارة الرعب في نفوس الأعداء وتخويفهم لمنعهم من الإعتداء على المسلمين أي أنّه نوع من العمليات الاحترازية العسكرية حيث ورد في الآية القرآنية: «واعدوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله» (الأنفال: ٦٠). كما هو واضحٌ من هذه الآية فإنّ المقصود من الإرهاب هنا هو استهداف العدو في الحرب وليس المدنيين.

وشاعرنا يحيى السماوي يكره الحروب اللامشروعة ويرفض مريديها، كما يكره ما يُسمى في عصرنا بالإرهاب، لكنه يقرّهما إن كانا سبيلا لنيل حرية شعب واستعادة حقوق مغتصبة عَجز السلامُ عن استعادتها:

إنْ كان يسْتأصِلُ مُحْتلاً/ وما يتركُ في مُسْتَنقعِ السلطةِ من أذنابْ/ إنْ كان يسْتأصِلُ من بستاننا الضباعَ والجرادَ والذئابْ/ وسارقي قوت الجماهير/ وتجّار الشعارات التي شَوّهتِ المحرابْ/ إنْ كان يجتثُّ الدراويش المُفَخَخينَ بالحقد/ وساسةَ الدهاليز الذين يعرضون بيتنا للبيع/ خلف البابْ/ فإنني: أباركُ الإرهابْ (السماوي، ٢٠٠٨ ب: ٨٨).

هذا لايعني بأنّ السماوي كان يحثّ على الإرهاب، بل إنّه يحثّ على مقاومة المحتل الغازي الذي دمّر العراق، ويندّد في شعره بنفوذ أمريكا في البلاد العربية والهيمنة عليها والسيطرة على العالم، فدعوة الشاعر في هذا المجال هي الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله. السماوي لا يتردّد في الإعلان المباشر أنّه ضد استخدام العنف إلا إذا كان موجّها إلى رؤوس الطواغيت وصدور الغزاة والخونة:

أنا ضد استخدام الرصاص/ باستثناء الرصاص الذي يثقب:/ رؤوس الطواغيت/ صدور الغزاة/ لصوص المطر/ والقادة الإماء (السماوي، ٢٠١٠ ب: ٧٣، ٧٤).

وهو يعود إلى إعلانه هذا بأشكالٍ مختلفةٍ وفي نصوصٍ عديدةٍ. نجد السماوي يشجب وبقوةٍ أي عملٍ إرهابي يستهدف الشعب، ويصف من يقومون به بـ «الهمجيين»:

أيها الهمجيون/ الجنّة ليست منجم فحم حجري/ لتفتح أبوابها بالدى ناميت/ ليست مسلخاً لتدخل بحزّ الرؤوس/ إذا كان الإرهاب جهاداً/ والقتل الأعمى تُقى/ فإن "آرييل شارون"/ أتقاكم جميعاً/ ولا ثمة أجدر من "الفوهرر" بالإمامة (المصدر نفسه: ١٥٠).

وفي ما يلي يقول:

كفرتُ بالنضالِ معروضاً بأسواق المخابراتِ للإيجارْ/ وبالعمائمِ التي تحرِّمُ الجهاد/ حينَ تُستباحُ الدارْ/ كَفاكِ هذا العارْ/ كَفاكِ هذا العارْ/ يا أمةَ الله انهضي كفاكِ هذا العارْ/ من قبلِ أن يطبقَ ليلُ القهرِ بالدجى على بقيةِ النهارْ (السماوي، ٢٠٠٥: ١٥١-١٥٣).

إنّ مدلول هذا المقبوس واضحٌ للعيان بمقصديته الدلالية الصريحة في التعبير عن الغضب

والإنفعال الداخلي على أولئك الذين يدّعون الإيمان؛ ويدلون بآرائهم الظالمة لمنع الجهاد الحقيقي والإيذان بشتى أنواع القتل، والدمار، والخراب باسم الدين؛ فالجهاد يعني قتل الظلمة الأمريكان؛ لا قتل الأبرياء من الأطفال، والنساء، والشيوخ؛ فكيف يزعمون أنّهم عباد الله المخلصين وهم يغتالون البراءة في العراق باسم الدين، والدين منهم براءٌ.

٥.٢ مفاهيم المقاومة المستوحاة من *القرآن الكريم*

استطاع العرب في صدر الإسلام أن يسودوا الدنيا، وتصبح لهم الغلبة على مساحة لا يستهان بها من الأرض. أما اليوم، فوضعهم المتردي وهوانهم لا يخفي على أحد؛ وذلك يعود إلى ابتعادهم عن المفاهيم الدينية النبيلة التي تضمّن كرامتهم وتقدّمهم. فالسماوي يكثّف هذا الرأي بصيغةٍ شعريةٍ معبّرةٍ، حين يأتي بآيات *القرآن الكريم*، تلك التي كانت أحد أسباب ازدهار الإسلام وسيادة رجاله، حين وعوا معنى الآيات، وجوهرها، وعملوا بها، فكانت لهم الغلبة. أما حين أفرغوا الآيات من جوهرها ومضمونها، كان حالهم ما نراهم عليه اليوم. وظّف السماوي الآيات القرآنية في شعره كثيراً لاستنهاض همم الشعب ومقاومة المحتل الأجنبي، فأخذ يتناص مع الآيات مضفياً عليها رؤية خاصة بما يتواءم ورؤيته الشعرية ومنظوره للجهاد في الدفاع عن الأرض:

إذنْ/ أعدُّوا لعدوكم ــ عدو الله ــ ما يرهبهُ/ من قوة اللسانْ/ وما استطعتم من خيول الخطب العصماء/ والبيانْ ذودوا عن التراب والمالِ/ وعن عرض المحصنات بالأشعارْ/ حتى يفرَّ القاتل المحتل من بستاننا/ وتُستعاد الدارْ (السماوي، ٢٠٠٥: ١٠٣، ١٠٤). فإذا كانت الآيات الكريمة تقول «وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم» (الأنفال: ١٦)؛ في دعوة لإعداد القوة اللازمة لتخويف العدو و ردعه، فقد أفرغ العرب اليوم الآيات من معناها؛ فأخذ السماوي يرشدهم للصواب وللطريق الحق بالتمسك بأصل الآيات. دعا السماوي الشعبَ العراقي إلى مقاومة أعدائهم/ أعداء الله ودحرهم عن العراق، كما حثّهم أن يذودوا عن أرض الوطن وعرض المحصنات لا بقوة الخطب الجوفاء إنّما بالكفاح بكل أشكاله بما فيه الكفاح المسلح حتى يضطرّ المحتل إلى

مغادرة البلاد. فالسماوي يريد من أبناء الثورة العراقية أن يستمروا في نضالهم وجهادهم حتى ينالوا حريتهم من الغزاة الأمريكان الطامعين.

وقد جاء هذا التناص فاعلاً في تحفيز الرؤية؛ فهو لم يكن مقحماً على النص أو زائداً لا طائلَ منه، بل جاء فاعلاً في تحريك الرؤية وتعزيز منظور المقاومة والجهاد في النص؛ وهذا هو السبب في نجاح الشاعر في بلورة رؤيته الثورية.

وفي قصيدة «ضعفاء ولكننا الأقوى» يعيد الشاعر إلى أذهاننا المواجهة بين فيلة أبرهة الغازي وطيور الأبابيل التي رمته بحجارة من سجّيل فجعلته كعصف مأكول:

فخذوا بنصحي:/ عيونكم لاتقوى/ على عواصف صحارانا/ أفيالكم الفولاذية/ لن تتحمّل "سجّيل أبابيلنا" (السماوي، ٢٠١٠ ب: ١٣١).

وهنا استلهام واضح في إشارته إلى أصحاب الفيل، فأصحاب الفيل هم أنفسهم في كلّ زمان، والمعنى يتناص مع الآيات في سورة الفيل: «ألم تَرَ كيفَ فعل ربُّك بأصحاب الفيل ألَمَ يجعل كيدهم في تضليل، وأرسلَ عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجّيل» (الفيل: ١ – ٤). فأصحاب الفيل هم عنوان للظلم الخارجي الذي يجتاح العالم الإسلامي على مرّ العصور، وإذا كان أبرهة الحبشي هو عنوان الظلم في ذلك الزمان فأمريكا هي أبرهة العصر، جاءت على متن أفيالها الفولاذية/ الدبابات.

والسماوي يدعو جميع الذين جاؤوا إلى وليمة العراق من ساسةٍ ومرابينٍ وتجارٍ باحثين عن أسواق لبضائعهم يدعوهم إلى تقوى الله، فيقول لهم ليس من مكارم الأخلاق أكل نطيحة على مائدة النفاق:

يا كلَّ من جاؤوا إلى وليمة العراق/ من ساسةٍ ... ومن مُرابين/ وباحثينَ عن اسواق/ للسُلع التي تُستعبد الأعناق لتّتقوا الله به/ فليس من مكارم الأخلاق/ أكلُ نطيحةٍ على مائدة النفاق (السماوي، ٢٠٠٥: ١١٠).

والنطيحة، الميت من نطح وفيها إشارة إلى قوله تعالى «حُرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردّية والنطيحة» (المائدة: ٣).

فالشاعر يدقّ ناقوس الخطر ويحذر من الوضع الراهن للعراق في ظلّ تقاعس الساسة وتشرذم الحالة السياسية وتبعاتها، مما انعكس على الحالة الاقتصادية للبلاد، فالذين جاؤوا العراق أخذوا يمتصون خيرات الشعب ويبدّدون ثرواته ويتعاملون مع أموال الأمة بخباثةٍ ونفاقٍ.

وفي قصدة «اخرجوا من وطني» يستدعي الشاعر الآية «ادخلوها بسلام آمنين» (الحجر: ٤٦)؛ ولكن لخروج المحتلين الطامعين:

هذه الأرضُ التي نعشقُ/ لا تُنبت ورد الياسمين/ للغزاة الطامعين/ والفرات الفحلُ/ لا ينجبُ زيتوناً وتين/ في ظلال المارقين/ فاخرجوا من وطني المذبوح/ شعبا وانهاراً وتين/ وأتركونا بسلام آمنين (المصدر نفسه: ٧، ٨).

وفي المقطع التالي نرى الشاعر يرسم صورةً حقيقيةً عرضتها شبكات تلفزة عديدة لجنود الإحتلال الذين اقتحموا مسجداً وقتلوا مصلين وجرحى، فيقول:

كان يشدّ الليل بالنهار/ مهاجراً من دونما أنصار/ يحملُ في فؤاده الله/ وفي مقلتيه السنبل والأزهار/ يُبشِّر التنّور بالدخان/ والصحراء بالعشب وبالأمطار/ والطفل بالدمية والظلمة بالأنوار/ لكنما الاغراب باغتوه بالمحراب/ يقرأ في الكتابْ/ وفضّل الله المجاهدين (المصدر نفسه: ١٣٢، ١٣٣).

وفي هذا المقطع يتناص الشاعر مع الآية الكريمة: «فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدينَ عَلَى الْقاعِدينَ أَجْراً عَظيما» (المائدة: ٩٥).

ولاشک أن اقتباس هذه الآية، واستخدامها في إطار دلالتها القرآنية في النص الشعري من شأنه أن يجعل المتلقي يستحضر صورة المجاهدين ــ ومنزلتهم العظيمة عند الله ــ كاملةً في السياق القرآني. وبهذا الأسلوب حاول الشاعر أن يتناص مع النص القرآني ويدخله في نسيجه الشعري.

٦.٢ الشهادة

إنّ موضوع الشهادة يطرح نفسه بقوة أمام الشعراء العراقيين الذين عرفوا بأنّهم رموز مدرسة الشعر المقاوم وأساتذتها الكبار. والسماوي أحد هذه الرموز التي أثرت قصيدة

المقاومة بمفاهيمٍ خصبةٍ وموضوعات جديدةٍ تصبّ في صميم الإبداع؛ فمن أروع قصائده تلك التي يرثي فيها الشهداء شهداء، الوطن العربي عامة والعراق خاصة. وقصائده التي تناولت هذا المشهد الرهيب تتوزع بين الألم والأمل، والآهات والصمود.

وردَ في شعر السماوي الكثير من أسماء الشهداء والشهيدات؛ فأشاد ببطولة هؤلاء المناضلين الذين ضحّوا بأنفسهم دون الوطن وفي هذا السياق سوف نسلّط الضوء على بعض الشهداء الذين جاء ذكرهم في شعر السماوي.

نذكرُ منهم الشهيد شاكر الجوعان أحد ثوار الإنتفاضة الجماهيرية في السماوة عام **١٩٩١** م. كان من بين الذين اقتحموا مديرية أمن النظام المقبور. أبى مغادرة العراق حين فشلت الإنتفاضة فألقي القبض عليه وعذب تعذيباً وحشياً قبل إعدامه. وقد رثاه الشاعر العراقي يحيى السماوي في قصيدة معنونة باسم الشهيد، صوّر فيها الشهيد شاكر الجوعان وهو يعانق الشهادة لينير طريق الحرية.

قصيدة «شاكر الجوعان» فيها صورٌ فريدةٌ وجديدةٌ، وتمتاز بالرصانة وصدق العاطفة والجمال الباذخ، يقول الشاعر فيها:

> حين سقط مُخرّزاً بالرصاص/ تدَحْرَجَ من السفحِ / إلى القِمّة/ حتى صار سارية ً للعلم الوطني (السماوي، ٢٠١٠: موقع المثقف).

مفارقةٌ عجيبةٌ وملفتةٌ للنظر؛ التدحرج يكون من الأعلى إلى الأسفل ولكن تدحرج الشهيد المناضل من الأسفل إلى الأعلى عكس تدحرج الآخرين وعكس تدحرج القاتل الذي تدحرج من أعلى سلّم غروره إلى بئر الخطيئة. ولا يخفى على المتلقي الفطن جمال مفردة «غروره» ودلالتها في النص:

> أما القاتل/ فقد سقط من أعلى سُلّم غروره/ إلى بئر الخطيئة ملوثا بوحل العار/ تحفّ به اللعنات/ بينما «شاكر الجوعان» يستحم ببخور الصلوات/ هناك ... في الأعالي (المصدر نفسه).

ولكي لايظنّ المتلقي أنّ هذا القاتل كان سابقاً يحتلُّ مكانةً مرموقةً وعاليةً فتدحرج

منها، تدارک السماوي الأمر بمفردة «غروره»، فسقوط القاتل كان من أعلى سُلم غروره الخبيث إلى بئر الخطيئة و لم يكتفِ الشاعر بهذا بل سعى سعياً موفقاً في تشويه صورة القاتل وترسيم فداحة سقوطه «ملوثاً بوحل العار تحفّ به اللعنات». ثم عاد ليصف تدحرج/ عروج الشهيد شاكر الجوعان:

بينما «شاكر الجوعان» يستحم ببخور الصلوات/ هناك ... في الأعالي (المصدر نفسه).

وهناك مفارقة أخرى في القصيدة تستوقف القارئ:

و لم يُحاول أن يكون أباً/ فقد ظلَّ طفلاً حتى وهو على مشارف الخمسين/ حين سقط مُضرّجاً بحب العراق/ فتدحرج من السفح إلى القِمّة! (المصدر نفسه).

كما هو معروف، التعبير المألوف في الأدب «مضرج بالدم» ولكن السماوي أعرض عن ذكر الدم وجاء بالسبب الذي دفع هذا الشهيد للتضحية وإراقة دمه وهو حبّ العراق. فالشهيد شاكر الجوعان سقط على أرض الوطن وهو محاطٌ ومضرجٌ بحبّ العراق وليس بدمه فقط.

وحبّ العراق عند السماوي يحمل دلالات غنيةً وثرّةً، يعجز الدم عن إيصالها للمتلقي. فإذا كان الدم يتصل بالعلاقات الجيولوجية الخاصة بالأسباب والقرابات فإنّ حبّ العراق صورةٌ نموذجيةٌ تشترك بين جميع العراقيين الشرفاء.

ويبتدئ الشاعر يحيى السماوي مجموعته «لماذا تأخرت دهراً» بقصيدة يرثي بها الشهيد كامل شياع الذي اغتيل على يد القوى الإرهابية بمسدس كاتم الصوت بطريقة جبانة، فيصوّر في تلك القصيدة الحرة الشهيد وهو يذهب إلى الشهادة لينير طريق الحرية الذي ظل عصياً على المثقف العراقي.

النعشُ هودَجهُ .../ لقد عقدَ القِرانَ على الشهادةِ/ قلبهُ كان المُقدّمَ .../ والمؤخّرُ؟ لا مؤخّرَ/ إنَّ ''كاملَ'' لا يُفكّرُ بالطلاق ولا بآجلْ./ للحبِّ في فقهِ الفتى العربيِّ ''كاملْ''/ فرضُ الوجوب وليسَ فرضُ المُستَحَبِّ/ أو النوافلْ فعلامَ أمطارُ الدموعِ/ على عريسٍ زفّهُ للخُلدِ ''بجدائيلُ''/ ''كاملُ'' عائدٌ ما مات ''كاملُ''/ ''كاملُ'' انتدبتهُ دجلةُ للخلودِ/ مُمثلاً نخلَ العراقِ/ وناطقاً باسمِ الطفولةِ باسمِ حُلمِ الكادحينْ .../ والناهضينَ إلى

الصباحِ وناسجي ثوبَ المحبّةِ/ من حريرِ الياسمينْ/ باسم الُحسينِ وباسم موسى/ وابنِ مريمَ باسمِ كلِّ الطيبينْ/ باسمِ البنفسجِ والقرنفلِ .../ باسم زيتونٍ وتينْ (السماوي، ٢٠١٠ ج: ٧-١٠).

لقد نَجح السماوي وأفلح في دمج مرثيته هذه بأجواء وطقوس وعادات عراقية صميمة بدءاً بمراسم العرس والمهر العاجل والآجل والفروض الإسلامية المستحب منها والواجب ثم نوافل الصلاة. فالحب والشهادة والتضحية في عقيدة «كامل» وفي سبيلها فروض واجبة وليست مُستحبّةً. يعلّق عدنان الظاهر على هذا المقطع قائلاً: «أعجبني تنويعه في القوافي وما متّع به نفسه من حرية التنقّل بين أفضلها في مقام ومواقف الرثاء ولاسيّما حرف اللام الساكن (كاملْ ... آجلْ ... نوافلْ ...) ثم حرف النون الساكن. حرف اللام متعلق ودال على العويل والويل، وحرف النون واضح التعلّق بالأنين. وهل أفضل في هذه المناسبة من ذكر اسم الحسين وكلاهما شهيدان وإن إختلفت أزمان ووسائل وغايات وأهداف الشهادة وفي إسم الحُسين أفضل قافية للنعي: حرف النون» (الظاهر، ٢٠١٠: موقع المثقف).

وقد أكد الشاعر على الانتماء الوطني للفقيد كامل شياع بذكره «الحسين» و«موسى» و«ابن مريم»، فهذا الشهيد الخالد رغم أنّه مندائي (صابئي) لكنه ليس من حصة هذا الدين أو ذلك المذهب، بل إنّه من حصة الإنسانية ومن حصة العراق باعتباره مناضلاً عراقياً.

قال السماوي في مكانٍ آخر من هذه القصيدة:

فاختارَ كاملُ أنْ يُقاتلْ/ بالنورِ لا بالسيفِ، بالنعناعِ والريحانِ بالحرفِ المناضلْ/ وبعُشبِ فلاّحٍ وريشِ حمامةٍ وبصبرِ عاملْ/ وبسعفِ بُستانِ الجَنوبِ/ وورد كردستانَ/ بالمحراثِ يرقصُ والمناجلْ (المصدر نفسه: ١٣-١٥).

لاحظْ كيف جمع الشاعرُ في هذا المقطع نضال المثقفين السلمي لا بالعنف والدم إنّما بالنور وجمال الطبيعة وورودها ورياحينها ... بالحرية التي تنعمُ بها الطيور الوديعة المسالمة ثم ذكر صراحةً هدف المناضلين العقائديين التاريخي العريق وهو تحرير الفلاحين والعمّال [وبعُشبِ فلاّحٍ وريشٍ حمامةٍ وبصبرِ عاملْ و لم ينسَ كردستان ومراث المزارعين ومناجلهم والمنجلُ رفيقُ وتوأم المطرقة]. لقد وضع السماوي الشهيد كامل في إطاره السياسي

والإيماني فاستشهد في بغداد حين كان يحاول الوصول من خلال وظيفته هناك إلى ما كان يصبو إليه من أهدافٍ إنسانيةٍ ساميةٍ (الظاهر، ٢٠١٠: موقع المثقف).

والسماوي نجح في طرح عقيدة الشهيد في شعره، فإنّه لم يكتفِ بالبكاء عليه والحزن لفقده، بل أكد على عقيدته ووصيته ـ التي هي وصية الشاعر أيضاً ـ ففي المقطع التالي يذكر لنا وصية الشهيد شاكر الجوعان الذي يدعو المناضلين إلى التصدي لقوات الإحتلال بكل قوّة:

لا يجوز لنا تعليقُ بنادقنا في المشاجب/ قانعين بما حققناه الليلة/ فالطمأنينة المؤقتة قناعٌ من أقنعة الجبن/ والقناعةُ خَدَرُ الثوريّ المتحفّزِ للوثوب/ ولئن حررنا الأرض من الطواغيت/ فعلينا تطهير الفضاء من دخانهم ياصاحبي!/ أرضنا الحبلى بالينابيع/ تتسعُ لحقولٍ جديد/ نحن نمتلك السواعدَ والمحارفَ/ وأقاليمَ شاسعةً من الإرادة/ فلنوقظ الينابيعَ من نومها/ لتقوم الغابات/ الغابات التي تصدّ الهجيرَ والرياحَ الصفراءَ/ فاحملْ معولك إنْ كنتَ لا تستطيع حمل البندقية! (السماوي، ١٩٩٣: ٦١).

هكذا يطرح الشاعر عقيدة الشهيد ووصيته لأبناء شعبه لكي يسيروا على نهجه ولا يكفوا عن النضال ولايعلقوا بنادقهم في المشاجب ولايقنعوا بما حققوه في ظل هذه الظروف المظلمة ولاينخدعوا بهذه الطمأنينة المؤقتة فهي قناعٌ من أقنعة الجبن، تخدر الثائر الدؤوب. ويجب على المناضلين أن يكافحوا حتى بعد تحرير أرضهم من الطواغيت. وفي هذا المقطع نرى الشهيد في صف المناضلين كقيادي ومخططٍ بارعٍ:

لئن حررنا الأرض من الطواغيت/ فعلينا تطهير الفضاء من دخانهم ياصاحبي!

فكما نلاحظ الشاعر يحيى السماوي يعطي للشهيد صورةً خالدةً وشخصيةً ثائرةً تشحن همم المناضلين وتبث روح الأمل والمثابرة فيهم. وكان موفقاً إلى حدّ بعيد في رسم صورة الشهيد النضالية؛ فالشهيد في شعر السماوي لازال حيّاً يقاتل في صفوف المناضلين: ما مات كامل/ كامل انتدبته دجلة للخلود (المصدر نفسه: ٩).

أو كما يقول:

ما مات كامل/ ان كامل لا يموت (المصدر نفسه: ١١).

حقا إنّه حيّ وخالد سوف يرجع ليكمل مسيرته النضالية التي أخذها على عاتقه في حياته:

لكن كامل/ سوف يطلع من ضلوع الأرض زيتونا/ ونورا من شبا بيك المعامل (المصدر نفسه: ١٧، ١٨).

فهذا الموقف يعني أنّ الموت في سبيل الوطن ليس موتاً بمعناه المألوف المعروف وإنّما هو ولادةٌ جديدةٌ. ولاشكّ في أنّ هذا التحول الدلالي الذي تنطوي عليه قصيدة الاستشهاد عند السماوي ينبع ـ في الواقع ـ من رؤيةٍ فلسفيةٍ مستوحاةٍ من العقيدة الإسلامية، التي تعد الشهداء والصديقين بحياة أخرى أبدية لا تنتهي، كما في قوله تعالى «ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يُرزقون» (آل عمران: ١٦٩)؛ ولذلك يرى في حياة الشهداء المتحولة عن الموت، درجة أعلى وأبلغ في الدلالة على الحياة من الحياة نفسها. فعلينا أن نقرأ الشهيد بعيداً عن المعنى المألوف اليومي، فهو لم يمت وإنّما ذهب لزمنٍ قصيرٍ وسيعود، وهذا المعنى الديني وردَ أيضاً في الآية الشريفة «ولا تقولوا لمن يُقتل في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ ولكن لاتشعرون» (البقرة: ١٥٤).

ومن الشهيدات من كانت جديرةً بأكثر من وقفةٍ وأكثر من تمجيدٍ كالمجاهدة «مريم الناعم» التي شاركت في الإنتفاضة الشعبية في «السماوة» عام ١٩٩١ م، فقتلت عدداً من أفراد قوة النظام العراقي قبل أن يبقروا بطنها وكانت حاملاً:

تَبقي ولو سَقَطَت يُضرّجُها الدّمُ هي للرّجالِ الثائرينَ مُعَلِّمُ!
حَمَلَت كتاب الله تحتَ ضلوعها وتقدّمَت ويدُ الرّدي تتقدّمُ
إن كانَ للمجدِ المُباركِ سُلَّمٌ فجَبينُ «مريم» صرحُهُ والسُّلَّمُ
فكأنّما شَجَرُ العفافِ ونهرُهُ جَمَعَتهُما في راحتَيها «مريمُ»

(السماوي، ١٤١٦: ٨٠)

مثل هذا التشامخ على «الوجع»، والإقدام على مجابهة العدو بكل جسارةٍ وفدائيةٍ يستوقف الشاعر، إذ به تَحُول المرأة/ الخصب، التي تنبعث منها الحياة، حياة الأجيال، حياة الوطن، إلى كينونة جامحةٍ مغامرة تَنشد من خلال «فنائها» هي ـ فناء دنيوياً بالطبع ـ تحقيق المهمة نفسها، وأداء الدور الوطني ذاته، دور بعث الحياة، عَود التجاسد والتحقق، وهو مسلك له جذوره وتمثّلاته المتنامية في التاريخ العربي والإسلامي، مما يجعل المحفِّز أشد عمقاً

وتأثيراً، فالباعث الديني ـ وهو نُشدان الشهادة في سبيل الله ـ متقد أبداً، والواقع المأســـاوي الحاثُّ على النضال طاغٍ وضاج، و«القدوة الحسنة» يتواتر بروز من مثَّلنَها عصراً تلو الآخر (القرني، ٢٠٠٨: ١٢٦)؛ ومن هنا فلا شكّ أنّ دور المرأة العراقية في مقاومة «نظام البعث» دورٌ رئيسٌ وفاعلٌ، ولعل إقامة الشاعر في المنفى، إضافةً إلى «التعتيم» الإعلامي الذي كانت تمارسه وسائل الإعلام البعثي مع كل صور مجابهتها، تقف وراء قلة ما كتبه من نصـــوصٍ شاهدةٍ على ذلك، ولكنها وَجازةٌ لا تنال إيمانه الراسخ بدور المرأة النضالي، الذي يؤكـــده احتفاؤه الحماسي المحتدم بنموذجٍ استثنائي كالبطلة الفلسطينية «آيات الأخرس»:

مَن تُسمِعين؟ جميعهم أمـــواتُ أَيُصيخُ سمعاً للجهادِ رفـــاتُ؟
مَن تُسمِعينَ؟ وهل تُعيدُ لجيفَةٍ نَبضاً وكِبرَ كرامةٍ أصـــوات؟
أم أنتِ صدّقتِ الخطابات التي فقدت معانيها بها الكلمـــاتُ؟
عربٌ إذا نطقوا وإن فعلوا فما لهمو سوى خُبثِ اليهودِ سماتُ

(السماوي، ٢٠٠٣ أ: ١٩، ٢٠)

الشهيدة «آيات الأخرس» هي من مخيم «الدهشة» قرب بيت لحم، وقد نفذت عملية فدائية ناجحة إذ فجرت نفسها في نتانيا/ وسط الكيان الصهيوني عـــام ٢٠٠٣ م موقعـــةً عشرات القتلى والجرحى الإسرائيليين، وأدت العملية إلى استشهادها وهي في سن السابعة عشرة كان مما تضمنته وصية «آيات» الاستشهادية قولها في شريط مصوّر «وأقول لحكام العرب: كفاكم نوماً، كفاكم تخاذلاً وتقاعساً عن أداء الواجب تجاه فلسطين، وخســـئت الجيوش العربية النائمة التي تنظر عبر شاشات التلفاز على بنات فلسطين وهن يقاتلن وهـــم في غفلتهم نائمون ...» (القرني، ٢٠٠٨: ١٢٧)، ويأتي المقطع السابق، بل أبيات القصيدة كلّها في صورة استنكار تربأ بآيات، وبكلّ حُرة عربية أن تستبقي في وجـــدانها ذرة مـــن حُسن ظنٍ أو أملٍ في قادة العرب والمسلمين الذين غلب على أكثـــرهم تقـــديم مصـــالحه الشخصية الضامنة لبقاء سيطرته وبروزه السياسي على المصلحة القوميـــة العربيـــة، بـــل والعقيدة الإسلامية من قبل ذلك، مستسلمين لسطوة الغرب وغطرسته، مرتضين لأنفسهم ولشعوبهم المهانة والخنوع:

آياتُ دعكِ من اســتشارةِ قــادةٍ   أصلُ البلاء «القادةُ الســاداتُ»
واستصرخي أحفادَ «عُروةَ» إنّهم   لشـــهامةٍ ومـــروءةٍ آيـــاتُ
آياتُ ما عـــاد الكمـــاةُ دريئـــةً   للقانتـــاتِ إذا اســـتبدَّ غُـــزاةُ
باتوا يُنيبون الصِّغارَ إذا ـــ دَجَــا   خطبُ وأسرفَ في الدّماءِ عَتــاةُ
....
خُصِيت كرامتُهم فلم يُعرف لهم   ثأرٌ إذا مـــا ديســـت الحرمـــاتُ
فُهُمو إذا تُغزَي الـــبلادُ أرانـــبٌ   وإذا تحرّكت الشُّعوبُ طُغاةُ!

(المصدر نفسه: ٢١ – ٢٣)

يكتب الشاعر هذا النص والحرب الأمريكية لاحتلال العراق على و شك أن تبـــدأ، في ظل عجز «القادة العرب» عن ثني صدام عما هو فيه من وهم القوة التي لا تقهر والجبروت الذي لاينكسر، كان المناخ العام ينبئ بكارثة الإحتلال الوشيكة، فمن ضـــيعوا بفُرقتـــهم فلسطين من قبل، هُم في سبيلهم إلى تضييع العراق، المصيبة واحدةٌ إذن، والـــداء واحـــدٌ، والحال منقلبٌ تماماً، فما عادت النساء محصنات في خدورهنّ بحماية سادة الأمة وقادتهـــا، وإنما هنّ بمرمي السَّبي والانتهاك ما لم ينتصرن لأنفسهن بأنفســـهن، لا بطغـــاة يُقـــدمون ضعاف شعوبهم وقوداً للحروب، ولايستأسدون إلّا عليهم، والشاعر يزداد إيغالاً في هجو القادة العرب حين يدعو أمثال آيات إلى الاستنجاد بأحفاد الصعاليك، أشباه الشاعر القديم ''عروة بن الورد''، فأولئك وإن تواضعوا قدراً ونسباً، فهم أهل النُّصرة والحميّة، بأرواحهم الحقة، لا بأوهام الخطب الرنانة والوعود الزائفة:

آياتُ واستوتِ الفضيلةُ والخنا   غِبَّ القنوط ويقظةٌ وسُباتُ
لِمَن الجيوشُ تناسلت أعدادُها   حتي لقد ضاقت بها الثكناتُ؟
يقتاتُ من خبزِ الجياعِ حديدُها   ومن الأُباةِ رصاصُها يَقتاتُ؟
أفدي لِنَعليكِ الجيوشَ يُخيفُها   زَحفٌ وتُوهِنُ عزمَها الشهواتُ
خُلِقوا لنارِ الدُنَيَنِ وفتَّحَت   أبوابَها ـــ لمثيلكِ ـــ الجنّاتُ
«لايسلم الشرفُ الرفيعُ من الأذى»   حتي يُطاحَ القادةُ «الشّبّهاتُ»

(المصدر نفسه: ٢٣، ٢٤)

كان من مزاعم صدّام أيّام زهوه العسكري أنّ من بين الجيوش العراقية جيشاً قوامه «سبعة ملايين» مقاتل «سمّاه» «جيش القدس» مهمّته تحرير فلسطين بعد احتلال الكويت!، والشاعر يُعيدنا في خاتمة النص إلى أجواء «العسكرة» المشبوهة في عددٍ من الدول العربية كالعراق وليبيا، وأمثالهما ممن لم تكن قضية فلسطين وتحريرها إلّا أداة مناورة ووسيلة مزايدة لتأجيج الخطاب السياسي والتغرير بالشعوب العربية والإسلامية، مؤكداً لآيات وللمعنيين بالهمّ العراقي والفلسطيني أنّ سبيلها النضالي ـ بيقينه وفدائيته وإقدامه ـــ هو وحده سبيل تحصيل الحق؛ سلاح التحرير وطرد الغزاة ومَن والاهم من خَونة الأمة وجبنائها (القرني، ٢٠٠٨: ١٢٨، ١٢٩).

٣. النتيجة

يعدّ يحيى السماوي من أبرز شعراء الحداثة فكان ولايزال يضطلع بدور ريادي في نشر الوعي وفضح ممارسات السياسة الإنهزامية للسلطة وللغزاة المحتلين. يؤكّد على انتمائه إلى وطنه في شعره، فهو وإن نُفي من بلاده إلّا انّه لايزال يحنّ اليه ويتمنّى الرجوع إلى أحضانه، ويحمل له ولأهله الحب والحنين؛ وإن كان بعيداً كلّ البعد عن الوطن، فمازال ينادي ويصرخ للحرية ويطالب الشعب بالتحرير والثورة ضد الطغيان.

تناول السماوي كثيراً من الظواهر التي يمارسها الإحتلال في محاربة الشعب العراقي على أرضه ووطنه. فقد عبّر في شعره عن قيم الثورة والنهوض والبعث والنضال، وتفاعل مع الواقع بصورةٍ متميزةٍ وبصورٍ مباشرةٍ، فخرج نصه عن حدود الزمان والمكان إلى التجربة المتنوعة، راصداً كل ما يحدث في العراق.

وقد تناول محور«الشهادة» حيث أكّد على قيمتها ومعانيها السامية. وقد أعطى للشهيد صورةً خالدةً وشخصيةً ثائرةً تسير بين الثوار وتندّد بالمحتل كي يشحن همة المناضلين ويبثّ روح الأمل والمثابرة فيهم. ويظهر في لغة شعره تأثّره بالتراث الديني، حيث وظّف الآيات القرآنية وذلك لإعطاء الخطاب الشعري قيمةً فنيةً ذات تأثيرٍ عميقٍ في نفس المتلقي بعد أن يمنحها رؤيته الخاصة.

المصادر

القرآن الكريم.

الأرناؤوط، عبد اللطيف (٢٠١٠ م). «المنفى والغربة في شعر الشاعر يحيى السماوي»، كتاب *تجليات الحنين في تكريم الشاعر يحيى السماوي*، ج ١، دمشق: دار الينابيع.

بدوي، محمد جاهين (٢٠١٠ م). *العشق والاغتراب في شعر يحيى السماوي*، دمشق: دار الينابيع.

بصري، مير (١٩٩٩ م). *أعلام الأدب في العراق الحديث*، لندن: دار الحكمة.

بلاوي، رسول (١٣٩١ ش). «توظيف الموتيف في شعر يحيى السماوي»، رسالة دكتوراه، مشهد: جامعة فردوسي مشهد.

سرمک، حسين (٢٠١٠ م): *إشكاليات الحداثة في شعر الرفض والرثاء (يحيى السماوي نموذجاً)*، دمشق: دار الينابيع.

سعدون‌زاده، جواد (١٣٨٨ ش). «مظاهر أدب المقاومة في شعر أحمد مطر»، *مجلة ادبيات پايدارى*، جامعة باهنر كرمان، س ١، ش ١.

السماوي، يحيى (١٩٩١ م). «قصيدة الحاخام يخطب في بغداد»، *صحيفة الندوة*، مكة المكرمة، رقم ١٠٦٤٦، بتاريخ ٢٩ جمادى الآخرة.

السماوي، يحيى (١٩٩٢ م). *قلبي على وطني*، بغداد.

السماوي، يحيى (١٩٩٣ م). *جرح باتساع الوطن*، جدة: الناشر عبد المقصود محمد سعيد خوجة.

السماوي، يحيى (١٤١٦ م). *رباعيات*، جدة.

السماوي، يحيى (١٩٩٧ م). *هذه خيمتي فأين الوطن؟*، ملبورن: مطبوعات R.M.Gregory.

السماوي، يحيى (٢٠٠٣ أ). *الأفق نافذتي*، إديلايد.

السماوي، يحيى (٢٠٠٣ ب). *زنابق برية*، استراليا.

السماوي، يحيى (٢٠٠٥ م). *نقوش على جذع نخلة*، سيدني: منشورات مجلة كلمات.

السماوي، يحيى (٢٠٠٦ م). *قليلك لا كثيرهنّ*، جدة: منتدى الإثنينية.

السماوي، يحيى (٢٠٠٨ أ). البكاء على كتف الوطن، دمشق: التكوين.

السماوي، يحيى (٢٠٠٨ ب). *مسبحةٌ من حرز الكلمات*، دمشق: دار التكوين.

السماوي، يحيى (٢٠١٠ أ). *بعيداً عني قريباً منك*، دمشق: دار الينابيع.

السماوي، يحيى (٢٠١٠ ب). *شاهدة قبر من رخام الكلمات*، دمشق: دار التكوين.

السماوي، يحيى (٢٠١٠ ج). *لماذا تأخرت دهراً*، دمشق: دار الينابيع.

شرتح، عصام (٢٠١١ م). *موحيات الخطاب الشعري*، سوريا: دار الينابيع.

الظاهر، عدنان (٢٠١٠ م). «مع الشاعر يحيى السماوي في: ديوان لماذا تأخّرتِ دهراً؟»، *صحيفة المثقف الكترونية*، العدد: ١٥٠٧، الرابط التالي:

http://www.almothaqaf.com/index.php?option=com_content&view=article&id=18274:2010-09-05-05-16-23&catid=34:2009-05-21-01-45-56&Itemid=53

القرني، فاطمة (٢٠٠٨ م). *الشعر العراقي في المنفى (السماوي نموذجاً)*، الرياض: مؤسسة اليمامة الصحيفة.

المقالح، عبد العزيز (١٩٩٢ م). *صدمة الحجارة*، بيروت: دار الآداب.